مجلة الدراسات الإسلامية - جامعة كابل
Journal of Islamic Studies - Kabul University
رقم تسجيل المجلة: RCTD GIJR - 0015-25 الرقم الدولي: e-ISSN: 3078-6355

JIS Journal Of Islamic Studies Kabul University e-ISSN:3078-6355

https://doi.org/10.62810/jis.v3i1.383

إشكالية الهوية الفكرية للشباب المسلم بين المرجعية الإسلامية وتأثير الخطاب المعاصر

الملخص: تعتبر قضية الهوية الفكرية من أبرز القضايا التي تشغل الفكر الإسلامي المعاصر، خاصة في ظل التحولات الثقافية والمعرفية المتسارعة التي يشهدها العالم المعاصر. وقد أصبح الشباب المسلم في قلب هذه التحولات باعتباره الفئة الأكثر تعرضا لتأثيرات الخطابات الفكرية والإعلامية والثقافية الوافدة عبر وسائل الاتصال الحديثة ومنصات التواصل الرقمي. وتتمثل الإشكالية الأساسية في كيفية محافظة الشباب المسلم على مرجعيته الإسلامية في ظل تعدد المرجعيات الفكرية وتنافس الخطابات المعاصرة التي تسعى إلى إعادة تشكيل القيم والتصورات وأنماط التفكير. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل طبيعة الهوية الفكرية للشباب المسلم، والكشف عن أبرز التحديات التي تواجهها في السياق المعاصر، مع بيان أثر المرجعية الإسلامية في بناء الشخصية الفكرية المتوازنة. كما تسعى إلى استكشاف انعكاسات الخطابات المعاصرة على منظومة القيم والوعي لدى الشباب، وإبراز السبل الكفيلة بتحقيق التوازن بين الانفتاح على معطيات العصر والمحافظة على الثوابت الإسلامية. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستفادة من المنهج النقدي في تحليل الخطابات الفكرية المعاصرة وتقويم آثارها على الهوية الفكرية. وانطلقت من إشكالية رئيسة مفادها: إلى أي مدى استطاعت المرجعية الإسلامية المحافظة على حضورها في تشكيل الهوية الفكرية للشباب المسلم في ظل التأثير المتزايد للخطابات المعاصرة؟ وقد توزعت الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الخطاب المعاصر، الشباب المسلم، العولمة الثقافية، المرجعية الإسلامية، الهوية الفكرية

الباحثة:

الدكتورة صفاء والشمش، تحت إشراف الأستاذة الدكتورة حنان الخياطي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي– الجديدة ، المغرب العربي.

البريد الالكتروني: safaeouchamch@gmail.com

تاريخ المادة:

تاريخ الإرسال: (٠٧ محرم ١٤٤٨/٢ السرطان ١٤٠٥)

تاريخ الإصلاح: (٢٢ صفر ١٤٤٨/ ١٦ الأسد ١٤٠٥)

تاريخ القبول: (١٠ ربيع الأول ١٤٤٨/ ٢ الميزان ١٤٠٥)

تاريخ النشر: (٠٤ ربيع الثاني ١٤٤٨/ ٢٦ الميزان ١٤٠٥)

The Problematic of the Intellectual Identity of Muslim Youth Between Islamic Reference and the Influence of Contemporary Discourse

ABSTRACT: The issue of intellectual identity is considered one of the most significant concerns of contemporary Islamic thought, particularly in light of the rapid cultural and cognitive transformations characterizing the modern world. Muslim youth have become central to these transformations, as they are the social group most exposed to intellectual, media, and cultural discourses transmitted through modern communication technologies and digital platforms. The core problem is how Muslim youth can preserve their Islamic frame of reference amid a plurality of intellectual paradigms and competition among contemporary discourses that seek to reshape values, perceptions, and patterns of thinking. This study aims to analyze the nature of Muslim youth's intellectual identity and identify the major challenges it faces in the contemporary context, while highlighting the role of the Islamic reference framework in constructing a balanced intellectual personality. It also explores the impact of contemporary discourses on the value system and awareness of young Muslims and demonstrates how a balance can be achieved between openness to the developments of the modern age and adherence to Islamic principles and constants. The study adopts a descriptive-analytical approach, complemented by a critical method for examining contemporary intellectual discourses and assessing their effects on intellectual identity. It is guided by the following central research question: To what extent has the Islamic reference framework maintained its role in shaping the intellectual identity of Muslim youth amid the growing influence of contemporary discourses? The study is organized into an introduction, three main sections, and a conclusion presenting the principal findings and recommendations.

Keywords: Contemporary Discourse, Cultural Globalization, Muslim Youth, Intellectual Identity, Islamic Reference Framework.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

شهد العالم خلال العقود الأخيرة تحولات عميقة مست مختلف جوانب الحياة الإنسانية، وأسهمت الثورة الرقمية والتطورات التقنية المتسارعة في إحداث تغيرات جوهرية في أنماط التفكير والتواصل وإنتاج المعرفة. وقد أفرزت هذه التحولات واقعا جديدا يتميز بتداخل الثقافات وتعدد المرجعيات الفكرية وتزايد تأثير وسائل الإعلام الحديثة في تشكيل الوعي الفردي والجماعي.

وفي خضم هذه التحولات يبرز الشباب المسلم بوصفه الفئة الأكثر احتكاكا بالخطابات الفكرية المعاصرة والأكثر تأثرا بها، نظرا لما يتميز به من قابلية للتفاعل مع المستجدات الفكرية والثقافية والتكنولوجية. وقد أدى هذا الواقع إلى بروز تساؤلات متزايدة حول مستقبل الهوية الفكرية للشباب المسلم وحدود قدرتها على المحافظة على خصوصيتها المرجعية في ظل التدفقات الثقافية العالمية.

وتكتسب قضية الهوية الفكرية أهمية خاصة في السياق الإسلامي، لأن الإسلام لا يمثل مجرد منظومة عقدية أو شعائرية فحسب، بل يشكل إطارا مرجعيا شاملا يوجه رؤية الإنسان إلى الكون والحياة والإنسان. ولذلك فإن أي تغير يطرأ على المرجعية الفكرية للفرد ينعكس بصورة مباشرة على منظومة القيم والمواقف والسلوكيات التي يتبناها.

وقد أفرز الواقع المعاصر مجموعة من الخطابات الفكرية المتنوعة، من أبرزها الخطاب الليبرالي والخطاب الفرداني والخطاب الاستهلاكي والخطاب الرقمي، وهي خطابات تحمل تصورات مختلفة للإنسان والحرية والقيم والهوية. ومع اتساع انتشار هذه الخطابات عبر الفضاء الرقمي، أصبح الشباب المسلم يعيش حالة من التفاعل المستمر مع رؤى وتصورات قد تنسجم أحيانا مع المرجعية الإسلامية وقد تتعارض معها في أحيان أخرى.

وتنبع أهمية دراسة هذه الإشكالية من الحاجة إلى فهم طبيعة التحولات التي تعرفها الهوية الفكرية للشباب المسلم، والكشف عن العوامل المؤثرة فيها، واستشراف السبل الكفيلة بحماية التوازن بين الأصالة والانفتاح، بما يضمن المشاركة الإيجابية في بناء الحضارة الإنسانية دون التفريط في الخصوصية الثقافية والدينية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في:

– معالجة إحدى القضايا الفكرية المركزية المرتبطة بمستقبل المجتمعات الإسلامية.

– إبراز دور المرجعية الإسلامية في بناء الوعي الفكري للشباب.

– تحليل تأثير الخطابات المعاصرة في تشكيل القيم والتصورات.

– المساهمة في تطوير رؤى تربوية وفكرية تسهم في تعزيز الهوية الفكرية لدى الشباب المسلم.

أهداف البحث:

تهدف البحث إلى:

– تحديد مفهوم الهوية الفكرية وخصائصها.

– بيان أسس بناء الهوية الفكرية في المرجعية الإسلامية.

– تحليل تأثير الخطابات الفكرية المعاصرة على الشباب المسلم.

– استكشاف التحديات التي تواجه الهوية الفكرية في العصر الرقمي.

– اقتراح آليات عملية لتعزيز الهوية الفكرية للشباب المسلم.

إشكالية البحث:

تنطلق الدراسة من الإشكالية الرئيسة الآتية:

إلى أي مدى تستطيع الهوية الفكرية للشباب المسلم المحافظة على مرجعيتها الإسلامية في ظل التأثير المتزايد للخطابات الفكرية والثقافية المعاصرة؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من الأسئلة الفرعية:

– ما المقصود بالهوية الفكرية للشباب المسلم؟

– ما الأسس المرجعية التي تقوم عليها الهوية الفكرية في التصور الإسلامي؟

– ما أبرز الخطابات المعاصرة المؤثرة في الشباب المسلم؟

– ما طبيعة التحديات التي تفرضها هذه الخطابات على الهوية الفكرية؟

– ما السبل الكفيلة بتحقيق التوازن بين المرجعية الإسلامية ومتطلبات العصر؟

منهجية البحث:

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لرصد مكونات الهوية الفكرية للشباب المسلم وتحليل خصائصها، كما استفادت من المنهج النقدي في دراسة الخطابات الفكرية المعاصرة والكشف عن انعكاساتها المعرفية والقيمية على الشباب.

تصميم البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيم الدراسة إلى ثلاثة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: الهوية الفكرية للشباب المسلم: المفهوم والأسس المرجعية.

المبحث الثاني: الخطاب المعاصر وأثره في تشكيل الوعي الشبابي.

المبحث الثالث: تحديات الهوية الفكرية وآفاق تجديدها في ضوء المرجعية الإسلامية.

المبحث الأول: الهوية الفكرية للشباب المسلم: المفهوم والأسس المرجعية:

المطلب الأول: مفهوم الهوية الفكرية:

أصبحت مسألة الهوية من أكثر القضايا حضورا في النقاشات الفكرية المعاصرة، خاصة في ظل التحولات الثقافية والمعرفية التي أفرزتها العولمة وثورة الاتصال. ولم يعد الحديث عن الهوية يقتصر على الانتماء الديني أو الثقافي، بل أصبح مرتبطا بالسؤال عن المرجعية التي تشكل وعي الإنسان وتوجه نظرته إلى ذاته وإلى العالم من حوله. ولذلك فإن دراسة الهوية الفكرية للشباب المسلم تقتضي تجاوز التعريفات المعجمية إلى تحليل الشروط الفكرية والاجتماعية التي تتحكم في عملية تشكلها.

يمكن استجلاء مفهوم الهوية الفكرية عند محمد إقبال من خلال تصوره للذات الإنسانية وروح الثقافة الإسلامية وموقف المسلم من التراث والفكر الحديث؛ فالهوية، في هذا التصور، لا تختزل في مجرد المحافظة على الموروث أو التمسك بأشكاله التاريخية، وإنما تقوم على امتلاك ذات واعية بمرجعيتها وقادرة في الوقت نفسه على التفاعل النقدي مع المستجدات الفكرية. فالذات الإنسانية عند إقبال ذات فاعلة ومبدعة، يتحدد وجودها بقدرتها على بناء نفسها وممارسة إرادتها، بينما تمثل الثقافة الإسلامية الإطار الحضاري الذي تتشكل داخله هذه الذات وتستمد منه مقوماتها الأساسية. ومن ثم فإن الهوية الفكرية الإسلامية تتأسس على الجمع بين الانتماء إلى الأصول والقدرة على التجديد، فلا يكون الانفتاح على الفكر الحديث ذوبانًا في الآخر، كما لا تكون المحافظة على التراث انغلاقا يحول دون التطور. وهذا ما ينسجم مع مشروع إقبال في إعادة بناء الفكر الديني، إذ دعا إلى الإفادة من التطورات الحديثة مع الحفاظ على موقف نقدي مستقل تجاهها، مؤكدا أن الفكر لا ينبغي أن يتوقف عند نتائج الماضي، بل يظل قابلا للمراجعة والتجديد كلما تطورت المعرفة وظهرت آفاق جديدة للتفكير[١].

١ينظر: محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمد يوسف عدس، دار القلم، بيروت، ١٩٦٦. ص: ٥٠.

وتكتسب هذه الفكرة أهمية خاصة عند الحديث عن الشباب المسلم؛ لأن هذه الفئة تعيش في مرحلة عمرية تتسم بالحيوية الفكرية والبحث المستمر عن المعنى والانتماء. ومن ثم فإن الهوية الفكرية للشباب لا تتشكل دفعة واحدة، بل تنشأ عبر عملية معقدة من التفاعل بين المرجعيات الدينية والثقافية والاجتماعية المختلفة.

وفي السياق الإسلامي، لا يمكن فهم الهوية الفكرية بمعزل عن المرجعية العقدية التي تؤطر رؤية المسلم للكون والحياة. فالقرآن الكريم لا يقدم للمؤمن أحكاما تعبدية فحسب، بل يؤسس لرؤية شاملة للوجود. وقد أشار طه عبد الرحمن إلى هذه الوظيفة حين اعتبر أن الدين لا يقتصر على كونه مجموعة من الاعتقادات، بل يمثل مبدأ في النظر والعمل معا.[١]

تظهر هذه الرؤية أن الهوية الفكرية في التصور الإسلامي ليست مجرد انتماء ثقافي أو اجتماعي، وإنما هي بناء معرفي وأخلاقي متكامل يستمد أسسه من الوحي. ولذلك فإن أي تحول يطرأ على المرجعية الفكرية للفرد ينعكس بالضرورة على منظومة القيم والمعايير التي يعتمدها في فهم الواقع وتقويمه.

وقد تنبه مالك بن نبي إلى مركزية البعد الفكري في بناء المجتمعات، حين أكد أن الأفكار هي التي تصنع الحضارة، أما الأشياء فليست إلا نتائج لها.[٢] ويبرز هذا القول أن أزمة الهوية لا تتجلى أساسا في المظاهر الخارجية، وإنما في طبيعة الأفكار الحاكمة للوعي الفردي والجماعي.

ومن هذا المنطلق، فإن أزمة الهوية الفكرية للشباب المسلم لا يمكن اختزالها في بعض التحولات السلوكية أو المظاهر الثقافية المستحدثة، لأن هذه المظاهر ليست سوى انعكاس لتحولات أعمق مست البنية المرجعية المنتجة للوعي. فحين تتراجع المرجعية الإسلامية عن موقعها المركزي في تشكيل الرؤية إلى الإنسان والحياة، تفسح المجال لمرجعيات أخرى تقدم تفسيرات بديلة للوجود والقيم والمعنى.

وفي هذا السياق يميز عبد الوهاب المسيري بين المرجعية المتجاوزة والمرجعية الكامنة، ويرى أن المجتمعات الحديثة تتجه تدريجيا نحو إقصاء المرجعيات المتجاوزة وإحلال الإنسان محلها باعتباره المرجع النهائي للقيم.[٣] وتكمن أهمية هذا التحليل في أنه يساعد على فهم كثير من التحولات التي يشهدها وعي الشباب المعاصر، حيث لم يعد الاحتكام إلى المرجعية الدينية هو المصدر الوحيد لإنتاج الأحكام والقيم.

كما أن الثورة الرقمية أضافت بعدا جديدا لإشكالية الهوية. فالشاب المسلم اليوم يعيش داخل فضاء معرفي مفتوح تتزاحم فيه المرجعيات والخطابات بصورة غير مسبوقة. وقد لاحظ مانويل كاستلز أن عصر الشبكات أوجد أشكالا

١طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، الطبعة الثانية ٢٠١٢م، علي مولا المركز الثقافي العربي، ص: ٢٨.

٢ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الفكر المعاصرة بيروت ودار الفكر دمشق سورية، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم المحامي عمر مسقاوي، ص: ١٧.

٣ عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م والطبيعة الثانية ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م، دار الشروق، ، ٢: ١٠-١١.

جديدة من بناء الهوية تقوم على التفاعل المستمر داخل الفضاءات الرقمية[١] ويعني ذلك أن الهوية لم تعد تتشكل فقط داخل الأسرة أو المدرسة أو المؤسسة الدينية، بل أصبحت خاضعة أيضا لتأثير شبكات التواصل والإعلام الرقمي.

ولا يقتصر أثر هذه التحولات على الجانب المعرفي فحسب، بل يمتد إلى البعد القيمي أيضا. فالتعرض المستمر لخطابات متعددة ومتعارضة قد يؤدي إلى نشوء حالة من التوتر بين الانتماء الديني الموروث والتصورات الجديدة التي يكتسبها الفرد من محيطه الرقمي والثقافي. وهنا لا يصبح السؤال متعلقا بوجود الهوية أو غيابها، وإنما بطبيعة المرجعية التي تملك القدرة على توجيهها وضبط مسارها.

ومن ثم يمكن القول إن الهوية الفكرية للشباب المسلم أصبحت اليوم مجالا لتفاعل معقد بين الثابت والمتغير، وبين المرجعية الإسلامية والخطابات المعاصرة. وهذا التفاعل لا ينبغي النظر إليه بوصفه صراعا حتميا بين الدين والحداثة، بل باعتباره اختبارا لقدرة المرجعية الإسلامية على المحافظة على فاعليتها التفسيرية والقيمية في عالم يتسم بتسارع التحولات وتعدد مصادر التأثير. ولذلك فإن فهم إشكالية الهوية الفكرية يقتضي دراسة المرجعيات المتنافسة التي تسهم في تشكيل وعي الشباب وتحليل آليات تأثيرها وحدودها، وهو ما يمهد للانتقال إلى دراسة أثر الخطاب المعاصر في إعادة تشكيل الوعي الشبابي.

المطلب الثاني: المرجعية الإسلامية ودورها في بناء الهوية الفكرية للشباب المسلم:

إذا كانت الهوية الفكرية تعبر عن الإطار المرجعي الذي يوجه رؤية الإنسان للوجود ويحدد معاييره في الحكم على الأفكار والأحداث، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: ما الذي يجعل المرجعية الإسلامية قادرة على أداء هذا الدور في بناء هوية الشباب المسلم؟

إن أهمية المرجعية الإسلامية لا تنبع فقط من كونها تمثل الخلفية الدينية للمجتمعات الإسلامية، بل من كونها تقدم تصورا متكاملا للإنسان والعالم والمعرفة. فالإسلام لا يقتصر على بيان الأحكام التعبدية أو تنظيم الجانب الروحي من حياة الإنسان، وإنما يقدم رؤية شاملة تسعى إلى تحقيق الانسجام بين مختلف أبعاد الوجود الإنساني.

وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى هذه الخاصية حين اعتبر أن العقيدة تمثل الأساس الذي تنتظم حوله بقية المعارف والسلوكيات، مؤكدا أن أصل السعادات كلها معرفة الله تعالى.[٢] ولا تكمن أهمية هذا القول في بعده العقدي فحسب، بل فيما يحمله من دلالة معرفية؛ إذ يجعل المعرفة بالله منطلقا لفهم الإنسان لذاته وللعالم من حوله.

---

١ The Power of Identity, Manuel Castells, Blackwell Publishers, ١٩٩٧, p. ٦.

٢ أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، دار المعرفة بيروت، ١: ٢٥.

ومن هنا فإن الهوية الفكرية في التصور الإسلامي لا تبنى على مجرد الانتماء الشكلي إلى جماعة دينية، وإنما تتأسس على منظومة من التصورات الكلية التي تمنح الإنسان إطارا مرجعيا متماسكا. ولهذا السبب ظلت العقيدة الإسلامية عبر العصور تمثل مصدرا لإنتاج المعنى وتوجيه الفعل الحضاري، ولم تقتصر وظيفتها على المجال التعبدي الضيق.

ويؤكد مالك بن نبي هذه الفكرة عندما يقرر أن العقيدة هي الطاقة الروحية التي تدفع الإنسان إلى الحركة في التاريخ.[١] يبين هذا التحليل أن قيمة المرجعية الإسلامية لا تتحدد بقدرتها على حفظ الهوية فحسب، بل بقدرتها أيضا على تحويل هذه الهوية إلى قوة فاعلة في الواقع.

غير أن أهمية المرجعية الإسلامية لا تتجلى فقط في بعدها العقدي، وإنما كذلك في بعدها القيمي. فالمجتمعات المعاصرة تشهد تزايدا ملحوظا في النزعات النسبية التي تجعل القيم خاضعة للأهواء الفردية أو للتحولات الاجتماعية المتغيرة. وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام منظومة أخلاقية تستند إلى معايير تتجاوز الأفراد والجماعات، وهو ما يمنحها درجة أعلى من الثبات والاستمرارية.

وفي هذا السياق يرى طه عبد الرحمن أن الأزمة الأخلاقية التي يعيشها الإنسان المعاصر ترجع إلى انفصال القيم عن أصولها الروحية، ويؤكد أن العمل الأخلاقي لا يكتمل إلا إذا تأسس على مقتضى ائتماني يربط الإنسان بمصدر متعال للقيم.[٢] وتبرز أهمية هذا التصور في كونه يفسر جانبا من أزمة الهوية الفكرية التي يعيشها بعض الشباب؛ إذ إن فقدان المرجعية الأخلاقية الموحدة يؤدي غالبا إلى حالة من التشتت القيمي والتردد في تحديد المواقف والاختيارات.

كما تتميز المرجعية الإسلامية بقدرتها على الجمع بين الثبات والتجدد، وهي خاصية تمثل أحد أهم عناصر قوتها في مواجهة التحولات المعاصرة. فالثوابت العقدية والقيمية تشكل الإطار الحاكم للهوية، في حين تسمح مجالات الاجتهاد والتفاعل الحضاري باستيعاب المستجدات التاريخية والمتغيرات الاجتماعية.

وقد أشار يوسف القرضاوي إلى هذه الخاصية بقوله إن من خصائص الإسلام الجمع بين الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل.[٣] يظهر هذا المبدأ أن المحافظة على الهوية لا تعني الانغلاق أو رفض التطور، وإنما تعني امتلاك القدرة على التفاعل مع المتغيرات دون التفريط في الأسس المرجعية.

ومن جهة أخرى، فإن الحديث عن المرجعية الإسلامية في الواقع المعاصر يقتضي تجاوز التصور الاختزالي الذي يحصرها في الجانب الوعظي أو الشعائري. فالتحدي الذي يواجه الشباب المسلم اليوم لا يتمثل في غياب الخطاب

---

١ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٥٨.

٢طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ص: ٤٥.

٣يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، الناشر مكتبة وهبة القاهرة، ص: ٥.

الديني بقدر ما يتمثل في ضعف تحويل المرجعية الإسلامية إلى رؤية معرفية قادرة على تفسير الواقع المعاصر والتفاعل مع إشكالاته الجديدة.

ولهذا نبه عبد الوهاب المسيري إلى أن أخطر مظاهر الأزمة الحضارية تتمثل في فقدان الإنسان للرؤية الكلية التي تمنحه القدرة على فهم العالم ضمن إطار متماسك، إذ يرى أن الرؤية الكلية هي التي تحدد موقع الإنسان من الكون وتمنحه معنى لوجوده.[١] ومن هذا المنظور تصبح المرجعية الإسلامية ضرورة فكرية قبل أن تكون مجرد خيار ثقافي أو ديني، لأنها توفر الإطار الذي يحفظ وحدة الرؤية ويمنع تفكك الوعي بين مرجعيات متعارضة.

وبناء على ذلك يمكن القول إن المرجعية الإسلامية لا تمثل مجرد أحد مكونات الهوية الفكرية للشباب المسلم، بل تمثل الأساس الذي تنتظم حوله بقية المكونات. غير أن فاعلية هذه المرجعية تظل مرتبطة بقدرتها على الحضور في المجال الفكري والثقافي المعاصر، وبمدى نجاح المؤسسات التربوية والعلمية في تحويلها من مجرد معرفة موروثة إلى وعي نقدي قادر على مواجهة التحديات الجديدة. ومن هنا تبرز الحاجة إلى دراسة الخطابات المعاصرة التي تنافس المرجعية الإسلامية في تشكيل وعي الشباب وإعادة صياغة تصوراته، وهو ما سيكون موضوع المطلب الثالث.

المطلب الثالث: مظاهر التوتر بين المرجعية الإسلامية والخطاب المعاصر في تشكيل الهوية الفكرية للشباب المسلم:

إذا كانت المرجعية الإسلامية تمثل الإطار الناظم للهوية الفكرية للشباب المسلم، فإن الواقع المعاصر يكشف عن وجود منافسة متزايدة بين هذه المرجعية وبين خطابات أخرى تسعى إلى تقديم تصورات بديلة للإنسان والحياة والقيم. ولا تكمن خطورة هذه الخطابات في كونها تقدم أفكارا مخالفة فحسب، بل في قدرتها على النفاذ إلى الوعي الشبابي عبر قنوات جديدة أكثر تأثيرا وانتشارا من المؤسسات التقليدية.

ومن ثم فإن الإشكال لا يتعلق بمجرد وجود أفكار متعارضة، لأن التعدد الفكري ظاهرة ملازمة لكل المجتمعات، وإنما يتعلق بطبيعة التحولات التي تصيب المرجعية ذاتها. فحين ينتقل مركز إنتاج المعنى من الدين إلى الإعلام، أو من الجماعة إلى الفرد، أو من القيم إلى المنفعة، فإننا لا نكون أمام تغير في بعض الآراء الجزئية، بل أمام تحول في البنية الفكرية التي تنتج هذه الآراء.

وقد تنبه تشارلز تايلور إلى هذه المسألة حين أشار إلى أن الإنسان الحديث أصبح يعيش داخل ما سماه "أفق الاختيار"، حيث لم تعد القيم تفرض بوصفها حقائق موضوعية، بل تعرض بوصفها خيارات فردية متساوية في المشروعية.[٢] ويكشف هذا التحليل عن أحد أهم مصادر التوتر الذي يعيشه الشباب المسلم؛ إذ إن المرجعية الإسلامية تنطلق من وجود حقائق

١عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر سيرة غير ذاتية، غير موضوعية، القاهرة ٢٠٠٠، سلسلة مطبوعات الهيئة (٧٤) ص: ٢٧٢.

٢ Sources of the. Self Charles Taylor, Harvard University Press, ١٩٨٩, p. ٢٧.

وقيم تتجاوز الإرادة الفردية، في حين تميل بعض الخطابات المعاصرة إلى جعل الفرد المرجع النهائي في تحديد الصواب والخطأ.

ويظهر هذا التوتر بوضوح في الخطاب الفرداني الذي أصبح من أكثر الخطابات انتشارا في الثقافة المعاصرة. فهذا الخطاب يعيد تعريف الإنسان بوصفه كائنا مستقلا استقلالا شبه مطلق عن الجماعة والتاريخ والمرجعية الدينية. وقد أشار زيغمونت باومان إلى أن الحداثة السائلة أنتجت أفرادا يعيشون حالة دائمة من إعادة تشكيل ذواتهم دون الارتباط بأطر مرجعية ثابتة[١].

وتكمن خطورة هذا التصور في أنه لا يكتفي بتغيير السلوك، بل يعيد بناء مفهوم الحرية نفسه. ففي حين تنظر المرجعية الإسلامية إلى الحرية باعتبارها قدرة الإنسان على الاختيار المسؤول في إطار القيم الأخلاقية، ينظر الخطاب الفرداني إلى الحرية باعتبارها تحررا من كل سلطة خارج الذات. وينتج عن ذلك اختلاف جذري في فهم الإنسان لعلاقته بالدين والمجتمع والأسرة.

كما يمثل الخطاب الاستهلاكي[٢] أحد أبرز العوامل المؤثرة في تشكيل الهوية الفكرية المعاصرة. فالرأسمالية الحديثة لم تعد تكتفي بإنتاج السلع، بل أصبحت تنتج أنماطا من التفكير والرغبات وأنماط الحياة. وفي هذا السياق يؤكد باومان أن المجتمع الاستهلاكي يحول الأفراد أنفسهم إلى سلع قابلة للتسويق[٣].

ويكشف هذا التحليل أن الهوية لم تعد تبنى انطلاقًا من منظومة قيمية مستقرة، بل أصبحت في كثير من الأحيان تصاغ وفق منطق السوق والصورة والاستهلاك. ولذلك نجد أن بعض الشباب أصبح يقيس النجاح بمعايير الشهرة والظهور والاستهلاك أكثر مما يقيسه بمعايير العلم أو الأخلاق أو الإسهام الحضاري. وهنا يظهر أثر التحول المرجعي بصورة واضحة؛ إذ تنتقل القيمة من كونها مرتبطة بالفضيلة إلى كونها مرتبطة بالمنفعة أو الجاذبية الاجتماعية.

ومن جهة أخرى، لعبت الثورة الرقمية دورا محوريا في إعادة تشكيل الوعي الشبابي. فوسائل التواصل الاجتماعي لا تنقل الأفكار فقط، بل تصنع بيئات فكرية كاملة تؤثر في طريقة إدراك الواقع.

---

١ زيجمونت بومان، الحداثة السائلة، الطبعة الأولى بيروت ٢٠١٦، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رءوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص: ١٢.

٢ يقصد بالخطاب الاستهلاكي مجموع الأفكار والرسائل والتمثلات التي تُنتجها وسائل الإعلام والإعلان ومختلف الفاعلين الثقافيين والاقتصاديين، والتي تعمل على تشكيل حاجات الفرد ورغباته وتوجيه سلوكه الاستهلاكي، بحيث يتحول الاستهلاك من مجرد وسيلة لإشباع الحاجات إلى ممارسة ذات أبعاد رمزية وثقافية واجتماعية، تعكس أنماطًا معينة في التفكير والعيش وتؤثر في منظومة القيم والاختيارات الفردية والجماعية.

٣زيغمونت باومان، الحداثة السائلة، ص: ٨٩.

وتبرز أهمية هذا التحليل في أن تأثير الوسائط الرقمية غالبا ما يكون غير مباشر. فالشاب لا يتلقى خطابا فكريا منظما بالضرورة، بل يتعرض يوميا لسيل متواصل من الصور والرموز والرسائل القصيرة التي تعيد تشكيل تصوراته بصورة تراكمية. ومن هنا فإن التأثير الحقيقي لا يكمن في مضمون رسالة بعينها، بل في البيئة الثقافية الكلية التي تخلقها هذه الوسائط.

وفي هذا السياق يذهب نيل بوستمان إلى أن الوسائط الحديثة لا تغير مضمون الرسائل فحسب، بل تغير أيضا طريقة التفكير ذاتها، فهو يرى أن كل تقنية جديدة تفرض فلسفتها الخاصة على الإنسان[١] . ويتيح هذا التصور فهم جانب مهم من أزمة الهوية الفكرية؛ إذ إن كثيرا من التحولات لا تنتج عن اقتناع واعٍ بأفكار جديدة، بل عن التكيف التدريجي مع أنماط جديدة من الإدراك والتواصل.

غير أن الحديث عن تأثير الخطاب المعاصر لا ينبغي أن يقود إلى تصور تبسيطي يقوم على اعتبار الشباب مجرد ضحية سلبية لهذه التأثيرات. فالتاريخ الإسلامي نفسه يؤكد أن الهوية لم تتشكل يوما في عزلة عن الثقافات الأخرى، بل تطورت من خلال التفاعل والنقد والاقتباس والإبداع. ولذلك فإن المشكلة لا تكمن في الانفتاح على العالم، وإنما في غياب المعايير المرجعية القادرة على توجيه هذا الانفتاح.

وقد عبر مالك بن نبي عن هذه الفكرة عندما ميز بين "القابلية للاستعمار" و"التفاعل الحضاري"، معتبرا أن الخطر لا يأتي من الخارج وحده، بل من ضعف المناعة الفكرية الداخلية التي تجعل المجتمع عاجزا عن التعامل النقدي مع المؤثرات الوافدة[٢].

لذا فإنه يمكن القول إن التوتر القائم بين المرجعية الإسلامية والخطاب المعاصر لا يمثل صراعا بين الانغلاق والانفتاح، بل يعكس صراعا بين أنماط مختلفة من إنتاج المعنى وتحديد مصادر الشرعية الفكرية والقيمية. فكلما ضعفت المرجعية الإسلامية بوصفها إطارا موجها للوعي، ازدادت قدرة الخطابات المعاصرة على إعادة تشكيل الهوية وفق تصورات مغايرة. أما إذا احتفظت هذه المرجعية بحيويتها الفكرية وقدرتها على تفسير الواقع، فإنها تصبح قادرة على استيعاب التحديات الجديدة وتحويلها إلى فرص للتجديد والإبداع.

المبحث الثاني: الخطاب المعاصر وأثره في إعادة تشكيل الوعي الشبابي:

المطلب الأول: من تعدد الخطابات إلى أزمة المرجعية في الوعي المعاصر:

---

١ Neil Postman, Technopoly, Vintage Books, ١٩٩٣, p. ١٨(تم التصرف فيه بترجمة الفكرة).

٢ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة وجهة العالم الاسلامي، ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م، ترجمة عبد الضبور شاهين، إشراف نورة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصرة بيروت، دار الفكر دمشق سورية، ص: ٧٣.

لم يعد الإشكال في السياق المعاصر مرتبطا بوجود اختلافات فكرية بين المدارس والتيارات، بل أصبح مرتبطا بغياب المركز المرجعي الذي ينظم هذا التعدد ويمنحه معنى. فالتعدد في ذاته ليس أزمة، لكنه يتحول إلى أزمة حين يفقد الفرد القدرة على التمييز بين ما هو تأسيسي وما هو عابر، وبين ما هو مرجعي وما هو تفسيري.

وقد أشار تشارلز تايلور إلى أن الإنسان الحديث يعيش داخل ما يسميه أفقا أخلاقيا متشظيا، حيث تتجاور القيم دون أن تخضع لمعيار أعلى موحد،[١] ويكشف هذا التشخيص عن طبيعة التحول الذي مسّ بنية الوعي: لم يعد الإنسان يستمد قناعاته من مرجعية كلية، بل من شبكة من الاختيارات المتعددة التي تتساوى في ظاهرها.

ومن هنا، فإن أزمة الشباب المسلم لا تتجلى فقط في مواجهة أفكار "غريبة" عن المرجعية الإسلامية، بل في الدخول إلى فضاء معرفي لا يعترف أصلا بفكرة المرجعية المطلقة. وهذا ما يجعل الصراع أكثر تعقيدا؛ لأنه ينتقل من مستوى المحتوى إلى مستوى "الأساس المعرفي" ذاته.

وفي هذا السياق، يذهب عبد الوهاب المسيري إلى أن الحداثة الغربية الحديثة قامت على إحلال المرجعية الإنسانية محل المرجعية المتجاوزة، بحيث يصبح الإنسان هو مصدر المعنى النهائي.[٢] ويعني ذلك أن كثيرًا من الخطابات المعاصرة لا تناقش الدين بوصفه رأيا، بل تتجاوزه بوصفه مرجعية تفسيرية للعالم.

وهذا التحول يفسر لماذا يشعر بعض الشباب بحالة من التردد القيمي؛ إذ لا يعود الحكم الأخلاقي مرتبطا بثوابت واضحة، بل بسياقات متغيرة: ما هو مقبول هنا قد يكون مرفوضا هناك، وما هو صحيح اليوم قد يصبح محل تشكيك غدا.

المطلب الثاني: آفاق استعادة التوازن المرجعي وبناء الهوية الفكرية في ضوء المرجعية الإسلامية:

إذا كانت الخطابات المعاصرة، وخاصة الرقمية والاستهلاكية، قد أسهمت في إعادة تشكيل الوعي الشبابي عبر تفكيك البنية المرجعية وإضعاف الاستمرارية الفكرية، فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق هو: كيف يمكن إعادة بناء الهوية الفكرية للشباب المسلم دون الوقوع في الانغلاق أو الذوبان؟

إن هذا السؤال لا يمكن التعامل معه بوصفه سؤالا وعظيا أو تربويا فقط، بل هو سؤال إبستمولوجي يتعلق بطبيعة إنتاج المعنى ومصادره. فالأزمة، كما سبقت الإشارة، ليست في تعدد الخطابات، وإنما في غياب الإطار المرجعي الناظم الذي يمنح هذا التعدد إمكانية الفهم والتمييز.

---

١ Sources of the Self, Charles Taylor, Harvard University Press, ١٩٨٩, p. ٩١.(تم التصرف فيه). بترجمة الفكرة

٢عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص: ٦٢.

في هذا السياق، يذهب طه عبد الرحمن إلى أن أزمة الإنسان المعاصر ليست أزمة معرفة بل أزمة تفكير بلا أصول، حيث يفقد الفكر صلته بالمبادئ المؤسسة التي تمنحه الاتساق.[١] ويعني ذلك أن إعادة بناء الهوية لا تبدأ من تراكم المعلومات، بل من استعادة الأصول المرجعية التي تضبط عملية التفكير نفسها.

ومن هنا تبرز أهمية المرجعية الإسلامية ليس باعتبارها تراثا ثقافيا، بل باعتبارها إطارا معرفيا قادرا على إنتاج رؤية كلية للعالم. فالإسلام، في جوهره، لا يقدم أجوبة جزئية فقط، بل يقدم تصورا شاملا للإنسان والكون والمعرفة. وهذا ما يجعل المرجعية الإسلامية قادرة – نظريا – على مواجهة حالة التشظي المعرفي التي تنتجها الحداثة الرقمية.

ويشير عبد الوهاب المسيري إلى أن قوة أي منظومة فكرية تكمن في قدرتها على تقديم نموذج تفسيري شامل يربط بين الظواهر الجزئية ضمن إطار كلي.[٢] ومن هذا المنظور، فإن استعادة الهوية الفكرية للشباب المسلم تتطلب إعادة تفعيل القدرة التفسيرية للمرجعية الإسلامية، بحيث لا تبقى محصورة في المجال التعبدي أو الأخلاقي الجزئي، بل تمتد إلى تفسير الواقع المعاصر بكل تعقيداته.

غير أن هذه الاستعادة لا يمكن أن تتم عبر التكرار الخطابي أو الوعظ المباشر، بل عبر إعادة بناء العلاقة بين النص والواقع، وبين الثابت والمتغير. فالتحدي الحقيقي لا يتمثل في حفظ المرجعية، بل في تفعيلها معرفيا داخل سياقات جديدة.

وفي هذا الإطار، يبرز مفهوم "الاجتهاد المقاصدي" باعتباره أحد الأدوات المنهجية القادرة على تحقيق هذا التوازن، إذ يسمح بفهم النصوص في ضوء مقاصدها الكلية دون تجميدها في تطبيقات تاريخية محددة. وقد أشار يوسف القرضاوي إلى أن التجديد في الفكر الإسلامي لا يعني تغيير الأصول، بل تجديد فهمها وتنزيلها على الواقع المتغير.[٣]

ومن جهة أخرى، فإن استعادة التوازن المرجعي تتطلب أيضا بناء وعي نقدي لدى الشباب المسلم، لا يقوم على الرفض المطلق للخطابات المعاصرة، ولا على القبول غير المشروط لها، بل على القدرة على التمييز والتحليل. فالمطلوب ليس الانغلاق أمام العالم، بل امتلاك أدوات معرفية تمكن من التعامل معه دون فقدان الهوية.

وفي هذا السياق، يشير مالك بن نبي إلى أن أي نهضة حضارية لا يمكن أن تتحقق دون تحرير الإنسان من القابلية للتأثر السلبي، ويعني ذلك أن بناء الهوية الفكرية ليس عملية تلقين، بل عملية بناء مناعة فكرية قادرة على التعامل مع المؤثرات الخارجية دون الذوبان فيها[٤].

١طه عبد الرحمن، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، ص: ٤٥.

٢عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١: ٧٧.

٣ يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، دار القلم، دمشق، ص: ٦١.

٤ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٩١.

كما أن المؤسسات التربوية والتعليمية تتحمل مسؤولية مركزية في هذا السياق، إذ لم يعد دورها مقتصرا على نقل المعرفة، بل أصبح مرتبطا بتكوين القدرة على التفكير النقدي وإعادة تنظيم المعرفة داخل إطار مرجعي متماسك. وهذا يتطلب مراجعة عميقة للمناهج وأساليب التعليم، بحيث لا تكتفي بتقديم المعلومات، بل تساهم في بناء الوعي.

ومن ثم، يمكن القول إن استعادة الهوية الفكرية للشباب المسلم تمر عبر ثلاثة مستويات مترابطة:

- **مستوى معرفي**: إعادة بناء الفهم العميق للمرجعية الإسلامية بوصفها إطارًا كليًا.
- **مستوى نقدي**: تطوير أدوات التمييز بين الخطابات المتنافسة.
- **مستوى تربوي**: تحويل القيم إلى ممارسة واعية وليست مجرد شعارات.

وبذلك لا تكون الهوية الفكرية حالة دفاعية منغلقة، بل مشروعا معرفيا حيا قادرا على التفاعل مع العصر دون فقدان الذات.

يتبين من خلال هذا المبحث أن الخطابات المعاصرة لا تمارس تأثيرها عبر الإقناع المباشر فقط، بل عبر إعادة تشكيل البنية الإدراكية والمرجعية للوعي. وهو ما يجعل أزمة الهوية الفكرية للشباب المسلم أزمة مركبة تتداخل فيها العوامل المعرفية والتقنية والثقافية.

وفي المقابل، فإن المرجعية الإسلامية تمتلك من حيث الأصل قدرة تفسيرية وقيمية تؤهلها لاستيعاب التحولات المعاصرة، لكن تفعيل هذه القدرة يظل مرتبطا بمدى تطوير أدوات الفهم والاجتهاد والتربية الفكرية.

المطلب الثالث: تفكك السلطة المعرفية وأزمة إنتاج المعنى في الوعي الشبابي المعاصر:

إن أحد أعمق التحولات التي يشهدها العصر المعاصر لا يتمثل في تعدد الخطابات فقط، بل في تفكك سلطة المعرفة نفسها، أي التحول الذي أصاب الجهة التي كانت تحتكر تعريف الحقيقة وتحديد معايير الصواب والخطأ. ففي السياقات التقليدية، كانت المرجعيات الدينية والعلمية والمؤسسات التربوية تشكل إطارا شبه منسجم لإنتاج المعرفة وضبطها، أما اليوم فقد أصبح هذا الإطار موزعا بين فاعلين متعددين، كثير منهم غير مؤسسي وغير منضبط منهجيا.

هذا التحول أشار إليه مانويل كاستلز حين بين أن السلطة في العصر الشبكي لم تعد تتمركز في مؤسسة واحدة، بل أصبحت سلطة موزعة داخل شبكات الاتصال والمعلومات.[١] ويعني ذلك أن إنتاج المعنى لم يعد خاضعا لمنطق العلم أو المؤسسة، بل لمنطق الشبكة والتداول والانتشار.

---

١ Manuel Castells, Communication Power, Oxford University Press, ٢٠٠٩, p. ٤٢ .بتصرف

يترتب على هذا الوضع ظهور ما يمكن تسميته بـ "تعدد مراكز الحقيقة"، حيث لا توجد حقيقة واحدة متفق عليها، بل حقائق متعددة تتنافس داخل الفضاء الرقمي والاجتماعي. وهذا التعدد، حين لا يضبطه إطار مرجعي كلي، يؤدي إلى حالة من التشظي المعرفي تجعل الفرد غير قادر على ترجيح المعاني أو بناء رؤية متماسكة للعالم.

وفي هذا السياق، يذهب تشارلز تايلور إلى أن الإنسان الحديث يعيش داخل عالم من الخيارات المتكافئة ظاهريا، حيث تصبح القيم والمعاني موضوعا للاختيار الفردي لا للالتزام المرجعي.[١] ويكشف هذا التصور عن انتقال خطير من الحقيقة إلى الاختيار، ومن المعيار إلى التفضيل.

هذا التفكك في السلطة المعرفية ينعكس مباشرة على الهوية الفكرية، لأن الهوية لا تتشكل في الفراغ، بل داخل منظومة من المعايير التي تحدد معنى الانتماء والالتزام. فإذا أصبحت هذه المعايير نفسها متغيرة وغير مستقرة، فإن الهوية تتحول بدورها إلى بنية هشة قابلة لإعادة التشكيل المستمر.

وقد أشار زيغمونت باومان إلى أن الحداثة السائلة أنتجت فردا يجبر على إعادة اختراع ذاته باستمرار دون مرجعية ثابتة[٢] وهذا يعني أن الهوية لم تعد مشروعا استمراريا، بل أصبحت عملية إعادة تركيب دائمة.

وفي السياق الإسلامي، يكتسب هذا التحول خطورته الخاصة، لأن المرجعية الإسلامية تقوم على وجود معايير ثابتة في العقيدة والقيم، بينما يفرض الواقع المعاصر منطق السيولة والاختيار المستمر. ومن هنا ينشأ التوتر بين ثبات المرجعية وسيولة الواقع.

غير أن المشكلة لا تكمن في وجود هذا التوتر بحد ذاته، بل في غياب القدرة على إدارته معرفيا. فحين يغيب الفهم العميق للمرجعية الإسلامية، يصبح الفرد عرضة إما للانغلاق الدفاعي أو للذوبان الكامل في الخطابات المعاصرة.

يؤكد طه عبد الرحمن أن أزمة الإنسان المعاصر هي أزمة انفصال بين المعرفة والقيم، حيث لم تعد المعرفة مرتبطة بالمسؤولية الأخلاقية.[٣] وهذا الانفصال يؤدي إلى إنتاج معرفة محايدة ظاهريا لكنها فاقدة للاتجاه القيمي.

ومن ثم، فإن تفكك السلطة المعرفية لا يؤدي فقط إلى تعدد الآراء، بل إلى فقدان القدرة على إنتاج المعنى ذاته، أي العجز عن بناء رؤية كلية للعالم تربط بين المعرفة والقيمة والغاية.

وهذا ما يفسر جزءا من أزمة الشباب المسلم اليوم، حيث تتراكم المعلومات دون أن تتحول إلى معنى، ويتسع الاطلاع دون أن يتعمق الفهم، وتزداد القدرة على الوصول إلى المعرفة دون القدرة على تنظيمها داخل إطار مرجعي متماسك.

---

١ Charles Taylor, Sources of the Self, Harvard University Press, ١٩٨٩, p. ٣٨.

٢ Zygmunt Bauman, Liquid Modernity, p. ٨٩.

٣طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص: ٥٣.

وعليه، يمكن القول إن أخطر ما يميز الخطاب المعاصر ليس أنه يقدم بدائل فكرية، بل أنه يعيد تشكيل شروط التفكير نفسها، بحيث يصبح إنتاج المعنى عملية فردية مشتتة بدل أن يكون عملية منهجية منضبطة داخل إطار مرجعي واضح.

ومن هنا تتضح الحاجة إلى إعادة بناء العلاقة بين المعرفة والمرجعية، بحيث لا تبقى المعرفة مجرد تدفق معلوماتي، بل تصبح جزءا من مشروع فهم متكامل للعالم والإنسان والقيم.

المبحث الثالث: آفاق إعادة بناء الهوية الفكرية للشباب المسلم في ضوء المرجعية الإسلامية:

إن تشخيص أزمة الهوية الفكرية للشباب المسلم، كما تم بيانه في المباحث السابقة، يقود ضرورة إلى الانتقال من مستوى التحليل النقدي إلى مستوى التفكير في إمكانات الاستعادة وإعادة البناء. غير أن هذا الانتقال لا ينبغي أن يفهم بوصفه انتقالا من المشكلة إلى الحل بشكل تبسيطي، بل بوصفه إعادة مساءلة لشروط إنتاج الهوية نفسها في سياق معاصر تتعدد فيه المرجعيات وتتداخل فيه الخطابات.

فإعادة بناء الهوية الفكرية لا تعني العودة إلى نموذج تاريخي مغلق، كما لا تعني الانخراط غير المشروط في الحداثة، بل تعني البحث عن صيغة توازن بين المرجعية والمعاصرة، بين الثبات والتجدد، ضمن إطار معرفي قادر على استيعاب التحولات دون فقدان البنية المعيارية.

وقد أشار طه عبد الرحمن إلى أن أي مشروع تجديدي في الفكر الإسلامي لا يمكن أن ينجح ما لم ينطلق من تجديد أدوات النظر قبل تجديد نتائج النظر. ويعني ذلك أن الأزمة ليست في المخرجات الفكرية فقط، بل في الأدوات التي ينتج بها الفكر ذاته.

المطلب الأول: إعادة مركزية المرجعية الإسلامية في بناء المعنى:

إن الدعوة إلى إعادة مركزية المرجعية الإسلامية لا ينبغي أن تفهم بوصفها دعوة إلى إلغاء التعدد أو إقصاء الخطابات الأخرى، بل بوصفها محاولة لإعادة تنظيم هذا التعدد داخل إطار معرفي قادر على إنتاج وحدة في الرؤية دون الوقوع في الإغلاق.

فالمشكلة الأساسية في السياق المعاصر ليست في وجود مرجعيات متعددة، بل في غياب معيار حاكم بينها، مما يؤدي إلى تساويها داخل الوعي الفردي. وهذا التساوي المعرفي يخلق حالة من اللاتمييز المرجعي، حيث تصبح الأفكار متجاورة دون ترتيب هرمي يحدد ما هو تأسيسي وما هو ثانوي.

ويؤكد عبد الوهاب المسيري أن الرؤية الكلية هي الشرط الضروري لفهم الظواهر الجزئية داخل نسقها العام، إذ بدونها يتحول الإنسان إلى متلق لمجموعة من المعلومات المنفصلة.[١] ومن هذا المنظور، فإن المرجعية الإسلامية لا تطرح هنا كهوية ثقافية فقط، بل كإطار معرفي يضمن وحدة الإدراك.

لكن الإشكال يظهر حين تختزل المرجعية في بعدها الشعائري أو الرمزي، بدل أن تفهم باعتبارها بنية تفسيرية للعالم. وهذا الاختزال يجعلها غير قادرة على منافسة الخطابات المعاصرة التي تقدم نفسها بوصفها تفسيرات شاملة للإنسان والوجود.

المطلب الثاني: أزمة المعرفة في زمن الاستهلاك الرقمي وإشكال الوعي النقدي:

إن أحد التحولات العميقة التي أنتجها العصر الرقمي يتمثل في انتقال المعرفة من كونها عملية تراكمية منظمة إلى كونها تدفقا لحظيا متقطعا. وهذا التحول لا يؤثر فقط في كمية المعرفة، بل في شكل الوعي ذاته.

فالمتلقي في الفضاء الرقمي لا يواجه معرفة مكتملة البنية، بل وحدات معرفية مجزأة تتطلب استهلاكا سريعا لا تحليلا عميقا. وهذا ما يؤدي إلى ضعف القدرة على بناء استدلالات ممتدة أو الحفاظ على مسار فكري متماسك.

وقد أشار نيكولاس كار إلى أن البيئة الرقمية تعيد تشكيل الدماغ البشري ليصبح أكثر سطحية في المعالجة وأقل قدرة على التركيز العميق[٢] ويكشف هذا المعطى أن الأزمة ليست فكرية فقط، بل إدراكية أيضا.

في هذا السياق، يصبح بناء الوعي النقدي ضرورة وجودية لا مجرد خيار تربوي. غير أن النقد المقصود هنا لا يعني الرفض، بل القدرة على التفكيك وإعادة التركيب داخل إطار مرجعي واضح. وهذا ما يجعل النقد جزءا من بناء الهوية وليس خارجا عنها.

وفي التصور الإسلامي، لا ينفصل النقد عن الفهم، ولا يتعارض إعمال العقل مع مقتضيات الإيمان، بل إن العلاقة بينهما تقوم على التكامل؛ إذ إن الإيمان في المنظور القرآني لا يُبنى على تعطيل العقل، وإنما يدعو إلى النظر والتدبر والتفكر والاعتبار، ويجعل من استعمال العقل وسيلة للوصول إلى الفهم الصحيح للإنسان والكون والوجود. فالقرآن الكريم يكرر الدعوة إلى النظر في الآفاق والأنفس، وإلى التدبر في آياته، وإلى الاعتبار بما جرى للأمم السابقة، كما ينتقد التقليد الأعمى واتباع الموروث دون نظر أو حجة، وهو ما يكشف عن حضور البعد النقدي في بناء الوعي الإسلامي منذ بدايته. ومن ثم، فإن النقد في التصور الإسلامي لا يعني مجرد الاعتراض أو الرفض، وإنما هو فعل معرفي يقوم على الفحص والتمييز والموازنة بين الآراء والمقولات، قصد الوصول إلى ما هو أقرب إلى الحق والصواب. ولذلك ارتبط النظر العقلي في التراث الإسلامي بمفاهيم التثبت والنظر والاستدلال والبرهان، وهي مفاهيم أسهمت في تشكيل

١عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١: ٧١.

٢ Nicholas Carr, The Shallows, ٢٠١٠, p. ١١٥.

منهج علمي في التعامل مع الأفكار والمواقف. ويؤكد القرآن هذا المنحى حين يحث على التثبت من الأخبار وعدم التسليم بكل ما يُنقل دون تحقق، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٢]، حيث يفيد السياق أن الاستماع إلى الأقوال لا ينتهي إلى قبولها بصورة آلية، وإنما يقتضي التمييز والاختيار. وعلى هذا الأساس، فإن التفكير النقدي في المنظور الإسلامي لا يمثل قطيعة مع الإيمان، بل يمكن النظر إليه باعتباره امتدادا للفعل المعرفي الذي يوجه الإنسان إلى الفهم والتدبر والتمييز، شريطة أن يمارس ضمن ضوابط معرفية وأخلاقية تحول دون تحوله إلى موقف عدمي يرفض الثوابت لمجرد الرفض. ومن هنا نشأت في التراث الإسلامي تقاليد متنوعة في النقد والمناظرة والجدل والمحاجة، اختلفت أدواتها ومناهجها باختلاف العلوم، لكنها اشتركت في جعل الحجة والبرهان والنظر عناصر أساسية في بناء الموقف العلمي؛ فالنقد لا تكون قيمته في هدم الأفكار فحسب، وإنما في قدرته على اختبارها والكشف عن مواطن القوة والقصور فيها، ثم إعادة بنائها على أسس أكثر اتساقا. وبذلك يصبح التفكير النقدي في التصور الإسلامي وسيلة لحماية العقل من التقليد والجمود، كما يصبح أداة لتجديد المعرفة والحفاظ على حيوية الفكر، دون أن يتحول التجديد إلى انفصال عن المرجعية الإسلامية أو إلى رفض غير منضبط للتراث.

المطلب الثالث: إعادة تشكيل الفضاءات الوسيطة للوعي (التربية والإعلام):

إن الحديث عن الهوية الفكرية لا يمكن أن يظل محصورا في المستوى النظري، لأن الوعي لا يبنى في الفراغ، بل داخل فضاءات وسيطة تشكل طريقة إدراك الفرد للعالم، وعلى رأسها المدرسة والإعلام والفضاء الرقمي.

وقد أشار مانويل كاستلز إلى أن السلطة في العصر الشبكي لم تعد سلطة مؤسسات فقط، بل أصبحت سلطة تتحقق عبر التحكم في تدفقات المعلومات وتوجيه الانتباه. وهذا يعني أن التأثير لم يعد مباشرا، بل بنيويا وغير مرئي في كثير من الأحيان[٣].

ومن هنا، فإن أي مشروع لإعادة بناء الهوية الفكرية يجب أن يتعامل مع هذه الفضاءات باعتبارها منتجا للوعي لا مجرد ناقل له. فالمناهج التعليمية، على سبيل المثال، ليست مجرد محتوى معرفي، بل هي طريقة في تنظيم التفكير وتوجيهه.

كما أن الإعلام لم يعد يقدم الواقع فقط، بل يعيد إنتاجه وفق منطق خاص به، يقوم على الإثارة والسرعة والاختزال، وهو ما يتعارض مع طبيعة البناء المعرفي العميق الذي تحتاجه الهوية الفكرية.

---

١ سورة الحجرات، الآية: ٦.

٢ سورة الزمر، الآيات: ١٧–١٨.

٣ Manuel Castells, Communication Power, p. ٥٢.

المطلب الرابع: نحو هوية فكرية فاعلة: من منطق الحماية إلى منطق الإسهام الحضاري:

كثيرا ما تطرح قضية الهوية الفكرية في الخطاب الإسلامي المعاصر ضمن سياق دفاعي يقوم على حماية الذات من الاختراق الثقافي أو الذوبان الحضاري. غير أن هذا التصور، على الرغم من مشروعيته الجزئية، يبقى قاصرا عن بناء هوية قادرة على الفعل والإبداع؛ لأنه يحصر الهوية في وظيفة الحماية بدل أن يجعلها مشروعا حضاريا منتجا للمعنى والمعرفة.

وقد تنبه مالك بن نبي إلى هذا الإشكال حين أكد أن النهضة لا تتحقق بمجرد مقاومة التخلف، بل ببناء شروط الحضارة نفسها، إذ يقول: إن المشكلة ليست أن نستهلك حضارة غيرنا، بل أن ننتج شروط حضارتنا[١].

ويكشف هذا القول إن الهوية لا تصان بالانغلاق، وإنما بامتلاك القدرة على الإنتاج الحضاري. فالذات التي لا تنتج معرفة ولا قيما ولا إبداعا تظل في موقع التابع، حتى وإن رفعت شعارات المحافظة على الهوية.

ومن هنا فإن السؤال الحقيقي لا ينبغي أن يكون: كيف نحمي الشباب من التأثيرات المعاصرة؟ بل: كيف نجعلهم قادرين على التفاعل الواعي مع العصر من داخل مرجعيتهم الإسلامية؟ إن الفرق بين السؤالين جوهري؛ لأن الأول ينطلق من منطق الخوف، بينما ينطلق الثاني من منطق الثقة الحضارية.

وفي هذا السياق، يقرر محمد إقبال أن المحافظة الحقيقية على الدين لا تكون بتجميد الحياة، بل بإطلاق طاقات الأمة نحو الإبداع، إذ يقول: إن الإسلام لا يريد للمسلم أن يعيش في الماضي، بل أن يبدع المستقبل مستلهما روحه من الوحي.[٢] وتبرز أهمية هذا التصور في أنه يربط بين الوفاء للأصول والانفتاح على المستقبل، ويجعل التجديد شرطا لاستمرار الهوية لا تهديدا لها.

غير أن الانتقال من الهوية الدفاعية إلى الهوية الفاعلة يقتضي أولا تجاوز الفهم الاختزالي للدين بوصفه شأنا فرديا أو طقوسيا. فالإسلام، في بنيته الأصلية، يقدم رؤية شاملة للإنسان والعالم والعمل الحضاري. ولذلك فإن القيم الإسلامية الكبرى كالعدل والاستخلاف والعمران ليست مفاهيم وعظية مجردة، بل مبادئ مؤسسة للفعل الاجتماعي والتاريخي.

١مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٨٤.

٢ محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ١٩٦٨م، ترجمة عباس محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص: ١٤٣.

وقد أشار أبو إسحاق الشاطبي إلى هذا البعد حين جعل مقاصد الشريعة متعلقة بتحقيق مصالح الإنسان في دينه ودنياه، قائلا: الشرائع إنما جيء بها لمصالح العباد.[١] وهذا النص يبين أن الفاعلية الحضارية ليست أمرا خارجا عن الدين، بل تمثل أحد مقاصده الأساسية.

ومن جهة أخرى، فإن الهوية الفاعلة لا تقوم على مجرد الاعتزاز بالانتماء، بل على تحويل هذا الانتماء إلى قدرة على الفهم والنقد والإبداع. ولهذا يؤكد طه عبد الرحمن أن القيم لا تؤتي أثرها ما لم تتحول إلى ممارسة تاريخية حية، إذ يقول: القيمة التي لا تتحول إلى عمل تبقى معنى مجردا لا يغير الواقع[٢].

ويعني ذلك أن أزمة الهوية عند بعض الشباب لا ترجع فقط إلى ضعف الانتماء، بل إلى ضعف تحويل القيم إلى مشروع عملي في الحياة اليومية.

كما أن بناء الهوية الفاعلة يقتضي إعادة الاعتبار للعلاقة بين الدين والمعرفة. فبعض الخطابات المعاصرة تفصل بين التدين والإبداع العلمي أو الحضاري، في حين أن التجربة الإسلامية التاريخية قامت على الجمع بين الإيمان والعلم والعمران. وقد لاحظ عبد الوهاب المسيري أن المجتمعات التي تفقد رؤيتها الكلية للإنسان والعالم تتحول إلى مجتمعات استهلاكية عاجزة عن إنتاج مشروع حضاري مستقل[٣].

ولذلك فإن الهوية الفكرية المطلوبة اليوم ليست هوية منغلقة تخشى العصر، ولا هوية ذائبة تستسلم لتحولاته، وإنما هوية تمتلك مرجعية واضحة وقدرة نقدية وفاعلية حضارية. فكلما ازداد وعي الشباب بمرجعيتهم الإسلامية بوصفها إطارا معرفيا وأخلاقيا شاملا، ازدادت قدرتهم على الانفتاح الواعي على العالم دون فقدان خصوصيتهم الفكرية.

وبناء على ذلك، يمكن القول إن مستقبل الهوية الفكرية للشباب المسلم مرتبط بمدى نجاحها في التحول من هوية دفاعية منشغلة بحماية الحدود إلى هوية فاعلة منشغلة بإنتاج الأفكار والقيم والمعارف. فالهويات لا تستمر لأنها تتحصن بالماضي فقط، وإنما لأنها تمتلك القدرة على صناعة المستقبل انطلاقا من أصولها المرجعية وثوابتها الحضارية.

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة إشكالية الهوية الفكرية للشباب المسلم في ظل التحولات الثقافية والمعرفية المتسارعة التي يشهدها العالم المعاصر، وسعت إلى استجلاء طبيعة العلاقة بين الشباب ومرجعيتهم الإسلامية في سياق التحديات التي تفرضها

---

١ لأبي اسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م، شرحه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، وضع تراجمه محمد عبد الله دراز، خرج آياته وفهرس موضوعاته عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد جديرة بيضون، دار الكتب العلمية، ص: ٨٦.

٢طه عبد الرحمن، سؤال العمل،٢٠١٢م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص: ٩١.

٣عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية،٢٠٠٦م، دار الشروق، القاهرة، ١: ٥٢.

الخطابات الفكرية والإعلامية والرقمية. وقد بينت الدراسة أن الحفاظ على الهوية الفكرية لا يتحقق بالانغلاق أو رفض معطيات العصر، وإنما ببناء مرجعية معرفية راسخة ووعي نقدي يمكن الشباب من التفاعل الواعي مع المستجدات، والتمييز بين ما ينسجم مع ثوابتهم وما يتعارض معها. كما أكدت أن الهوية الفكرية الإسلامية تمتلك من المرونة والقدرة على التفاعل الحضاري ما يؤهلها للإسهام في إنتاج المعرفة ومواكبة التحولات المعاصرة، شريطة تعزيز البناء العلمي والفكري الذي يحول الشباب من مجرد متلقين للخطابات المعاصرة إلى فاعلين في صناعة المستقبل والإسهام الحضاري.

النتائج:

- تعد إشكالية الهوية الفكرية للشباب المسلم من أبرز القضايا المعاصرة نتيجة التحولات الثقافية والمعرفية المتسارعة التي أعادت تشكيل مصادر المعرفة وأنماط التفكير.
- تقوم الهوية الفكرية في التصور الإسلامي على بناء معرفي وقيمي مستند إلى المرجعية الإسلامية، ولا تقتصر على مجرد الانتماء الثقافي أو الموروث الاجتماعي.
- تشكلت الهوية الفكرية الإسلامية تاريخيًا من خلال التفاعل مع مختلف الثقافات والحضارات، مما يؤكد أن الانفتاح لا يتعارض مع الحفاظ على الهوية متى كان منضبطًا بالمرجعية الإسلامية.
- أسهمت الخطابات الرقمية والإعلامية والاستهلاكية في إعادة تشكيل وعي الشباب، من خلال التأثير في مصادر المعرفة وآليات التفكير ومعايير الشرعية الفكرية.
- أدى تعدد الخطابات المعاصرة إلى بروز مظاهر التعدد المرجعي والتشظي القيمي لدى بعض الشباب، في ظل غياب إطار معرفي منظم لعملية التلقي والنقد.
- ترجع أزمة الهوية الفكرية أساسًا إلى ضعف البناء المرجعي والنقدي أكثر من ارتباطها بقوة الخطابات المعاصرة أو الانفتاح على الثقافات الأخرى.
- لا يمثل الانفتاح على العالم ومنجزاته الفكرية تهديدًا للهوية، وإنما تكمن الإشكالية في غياب الأدوات المعرفية التي تمكّن من التمييز بين ما يمكن الإفادة منه وما ينبغي نقده وتقويمه.
- تقتضي معالجة أزمة الهوية الفكرية تجاوز المقاربات الدفاعية، والعمل على بناء هوية فكرية فاعلة تمتلك القدرة على النقد والاختيار والإبداع والإسهام الحضاري.
- يسهم ترسيخ الوعي بالمرجعية الإسلامية بوصفها إطارا معرفيا وأخلاقيا شاملا في تعزيز قدرة الشباب على التفاعل الإيجابي مع معطيات العصر دون الوقوع في الذوبان أو الاغتراب الفكري.

- يرتبط مستقبل الهوية الفكرية للشباب المسلم بامتلاك وعي نقدي راسخ، ومرجعية معرفية واضحة، وحضور حضاري فاعل يمكنهم من المشاركة في إنتاج المعرفة وصناعة المستقبل.

التوصيات:

في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

١. تعزيز البناء المعرفي والمرجعي للشباب المسلم من خلال تطوير المناهج التعليمية والبرامج التكوينية بما يرسخ الفهم الواعي للمرجعية الإسلامية ويربطها بقضايا الواقع المعاصر.
٢. تنمية مهارات التفكير النقدي والوعي الرقمي لدى الشباب، بما يمكنهم من التعامل الرشيد مع الخطابات المتداولة في الفضاء الرقمي والإعلامي، والتمييز بين المعارف الرصينة والمضامين الموجهة أو السطحية.
٣. تفعيل أدوار المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية في بناء هوية فكرية متوازنة تجمع بين الأصالة والانفتاح.
٤. تأهيل الشباب للانتقال من موقع التلقي والاستهلاك المعرفي إلى موقع الفاعلية والإسهام الحضاري، عبر مبادرات وبرامج عملية تعزز المشاركة والإبداع والمسؤولية المجتمعية.

لائحة المصادر والمراجع:

- إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م.
- إقبال، محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمد يوسف عدس، دار القلم، بيروت، ١٩٦٦م.
- باومان، زيغمونت، الحياة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٧م.
- باومان، زيجمونت، الحداثة السائلة، ط: ١، ٢٠١٦م، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رءوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.
- بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم المحامي عمر مسقاوي، ط: ١، ١٩٨٨م، دار الفكر المعاصرة، بيروت، ودار الفكر، دمشق، سورية.
- بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة: وجهة العالم الإسلامي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ترجمة عبد الصبور شاهين، إشراف نورة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصرة، بيروت، ودار الفكر، دمشق، سورية.
- الجابري، محمد عابد، قضايا الفكر العربي (٣): مسألة الهوية العروبية والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.
- الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، ط: ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، شرح أحاديثه وخرّجها الشيخ عبد الله دراز، ووضع تراجمه محمد عبد الله دراز، وخرّج آياته وفهرس موضوعاته عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.
- القرضاوي، يوسف، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، دار القلم، دمشق.

- القرضاوي، يوسف، الخصائص العامة للإسلام، ط: ٤، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، مكتبة وهبة، القاهرة.
- طه عبد الرحمن، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، ط: ٢، ٢٠١٢م، المركز الثقافي العربي.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ط: ١، ٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط: ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار الشروق. ط: ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، ج: ١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
-

-Castells, Manuel. *The Power of Identity*. Blackwell Publishers. ١٩٩٧.

-Postman, Neil. *Technopoly*. Vintage Books. ١٩٩٣.

-Taylor, Charles. *Sources of the Self*. Harvard University Press. ١٩٨٩.

-Taylor. Charles. *Sources of the Self*. Harvard University Press. ١٩٨٩.